

تجارة الحرير في إمبراطورية المغول خلال النصف الثاني من القرن 13/هـ م

أ/- حسام صلاح
جامعة الجزائر-2-

الملخص:

قامت الإمبراطورية المغولية بدور محوري في تاريخ العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، وذلك من خلال تبنيهم سياسة الانفتاح على العالم الخارجي وفتح أبواب التجارة على العالم الخارجي، وأدركوا أنّ هذه السياسة لا يمكنها أن تتحقق على أرض الواقع إلا بشرطين، أولهما: السّهر على فتح الطرق التجارية الرابطة بينهم وبين غرب القارة الآسيوية والغرب الأوروبي وعلى رأسها طريق الحرير، وثانيهما: توفير الأمن والحماية للتجار والمسالك التجارية في أرجاء الإمبراطورية.

وخلال النصف الثاني من القرن 13/هـ م وفي فترة حكم الخاقان قوبيلاي عرف طريق الحرير ازدهارا ملحوظا، شهد له بذلك الرحالة الشهير ماركو بولو لما زار ربوع الإمبراطورية المغولية، ولاحظ إشاعة الأمن عبر طريق الحرير ورواج الأسواق التجارية الذي عرفته جل أرجاء الإمبراطورية، وهذا بفضل الإجراءات والخطوات الملموسة التي قام بها قوبيلاي، وقد أدت هذه الإستراتيجية إلى تمتين التواصل الحضاري بين الشرق والغرب.

الدراسة التي بين أيدينا تطرح التساؤلات التالية: ما هو وضع وحال طريق الحرير في النصف الأول من القرن 13/هـ م في الأراضي المغولية؟ كيف أصبح طريق الحرير في النصف الثاني من القرن 13م؟ وما هي عوامل وظروف ازدهار طريق الحرير؟ وما هي نتائج ازدهار طريق الحرير على الإمبراطورية المغولية ودول المشرق الإسلامي والغرب الأوروبي؟

الكلمات المفتاحية:

طريق الحرير؛ العلاقات التجارية؛ الشرق والغرب؛ المغول العظام.

Abstract:

The Mongol Empire played an important role in history economic between East and West, because the emperors of Mongols follow the policy of opening up to international trade, the Mongol Emperors tried to provide security and open up the broken commercial routes between the far east and the west European.

During the second half of the thirteenth century, the Silk Road was remarkable prosperity because the Mongol Emperors especially Kublai Khan make an effort to improve Mongol economy, the traveler Marco Polo noted the flourishing of roads commercials prosperity of the Silk road has contributed to the strengthening of civilized communication between East and west.

This Study raises many questions concerning the state of the silk road before the 13th century?, and how it became a road in the second half of the 13th century?, what are the results of the silk road boom on Mongols, Islamic, European world?.

Key Word: Silk Road; Commercials Relations; East and West in the Middle Age; the Great Mongols.

1) مفهوم طريق الحرير وتحديد مراحلها: أ) مفهوم طريق الحرير

يُعتبر طريق الحرير Silk Road أكبر وأهم طريق تجاري في العالم خلال العصرين القديم والوسيط، وهو بمثابة شبكة متفرعة من الطرق تصب في مسلك رئيسي، يمتد من الصين شرقاً إلى أوروبا غرباً مروراً بآسيا الوسطى، وإيران فالعراق ثم إما إلى بلاد الأناضول أو السواحل الشامية. انتظمت مساراته منذ القرن الأول قبل الميلاد، شكلاً معييراً حيويًا لمختلف البضائع والسلع من جهة، بالإضافة إلى الأفكار والديانات من جهة أخرى وذلك عبر مختلف العصور التاريخية. يبلغ طوله أكثر من ثمانية آلاف كيلو متر، ظهرت تسميته بطريق الحرير منذ سنة 1877م، استخدمه العالم الجغرافي الألماني البارون فرديناند ريشتهوفن F. Von Richthofen¹ لأن مادة الحرير هي أهم سلعة نُقلت عبره من الشرق الأقصى لتسوق في أوروبا وغيرها من بلاد العالم القديم.²

ب) مراحل طريق الحرير

اهتدى بعض الباحثين والدارسين المتخصصين والمهتمين بطريق الحرير إلى تقسيمه إلى ثلاثة مراحل أي مقاطع³ نظراً لتشعبه وطول مسافته التي تتجاوز ثمانية آلاف كم، وتستغرق رحلته 200 يوم في الظروف العادية، ولتيسير هذه الدراسة اقتضت هذا المسلك، والتجأت إلى تقسيم طريق الحرير إلى ثلاثة مراحل، وهي:

المرحلة الأولى: تُعرف بالمرحلة الصينية بسبب مرور طريق الحرير عبر الأراضي الصينية، ويبدأ هذا المقطع من الطريق بدءاً من مدينة تشانغان Cahngan عاصمة الصين القديمة إلى غاية الحدود الشمالية الغربية للصين، عدت هذه المرحلة من أهم مراحل طريق الحرير نظراً لمكانة المنتجات الصينية في الأسواق الآسيوية والأوروبية، وتمثل هذه المرحلة أيضاً من أصعب وأشق مراحل طريق الحرير نظراً للظروف الطبيعية الصعبة من جبال شاهقة وصحراء قاحلة وقبائل شرسة وإتباع الصينيين سياسة الانغلاق أحياناً والتخوف من كل ما هو أجنبي أحياناً أخرى.⁴

المرحلة الثانية: مرحلة آسيا الوسطى حتى إيران تعتبر هذه المرحلة أقل صعوبة من المرحلة الأولى، ويمتد طريق الحرير في هذه المرحلة من سفوح هضبة التبت Tibet Platea مروراً بفرغانة ثم سمرقند فبخارى ثم مرو وصولاً إلى الأراضي الإيرانية عند طهران.⁵

المرحلة الثالثة : تنطلق من بلاد فارس ثم تخترق بلاد ما بين النهرين فبلاد الشام وصولاً إلى الشواطئ الشرقية للمتوسط ومنه إلى جنوب أوروبا، عُد هذا المقطع من أسهل مقاطع طريق الحرير نظراً لسهولة تضاريسه وتعدد مسالكه، فإذا سُد طريق من هذه الطرق استعملت طرق أخرى⁶.

عرف طريق الحرير منذ بدايات استغلاله ثلاث فترات، ازدهر فيها وانتعش وساهم في تنشيط التواصل الحضاري بين الشرق والغرب، فالفترة الأولى حُددت في القرنين الأول والثاني للميلاد، والفترة الثانية التي تُعد من أنشط وأهم فترة ازدهر فيها طريق الحرير وهي الفترة الإسلامية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين، والفترة الثالثة التي عرف فيها طريق الحرير انتعاشاً وقد حُددت من النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وهذه الفترة هي موضوع الدراسة الذي يتطرق إليه الباحث في هذا المقال⁷.

(2) مسالك التجارة الدولية قبل العهد المغولي

إن العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب لم تتوقف كلية إبان العصور الوسطى، ولئن أصابها انكماشاً في فترات مختلفة بسبب تردي الأوضاع الأمنية إلا أنها تراجعت ولم تتوقف، ومع تحسن الأوضاع الأمنية واستقرارها تعود الحياة الاقتصادية عامة والتجارية خاصة على طول طريق الحرير أو في مرحلة من مراحله⁸، ومن ذلك، حُق لنا أن نتساءل، ما هي الطرق التي سلكتها التجارة البرية من الشرق الأقصى إلى آسيا الغربية وأوروبا اللاتينية قبل أن يظهر المغول كقوة فاعلة في العلاقات الدولية؟.

سلكت التجارة الدولية قبل الغزوات المغولية طريق الحرير البري⁹، اختص هذا الطريق بنقل السلع والبضائع الخفيفة الوزن المرتفعة الثمن، في حين استعمل طريق الحرير البحري¹⁰ والذي يُعرف بطريق البخور. الذي يمر عبر السواحل الصينية فالهندية وصولاً إلى بحر العرب ليتفرع إلى شطرين، إما إلى الخليج العربي ومن ثم إلى العراق فبلاد الشام وإما إلى البحر الأحمر ليتوجه إلى الإسكندرية ومن ثم إلى السواحل الأوروبية المطلّة على المتوسط¹¹، ويُمكن تحديد طريق آخر سلّكته القوافل التجارية عبر الصين، ومن ثم إلى إقليم التبت فشمال بحر آرال ثم إلى جنوب بحر قزوين ليمر بإيران فالعراق ووصلاً إلى

بلاد الشام ليتفرع هناك إلى ثلاثة فروع الأول إلى بيروت والثاني إلى صور والثالث إلى أنطاكية، غير أن هذا الطريق لم يعد متاحا للقوافل والمسافرين بسبب المخاطر التي ألتمت به أثناء الغزوات المغولية طوال ستين سنة الأولى من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي¹².

(3) الأوضاع الاقتصادية العامة المغولية في النصف الأول من القرن

13/هـ7م

عمل مؤسس الدولة المغولية جنكيز خان (guinchiez khan) 1206-1227م) على الرقي بالتجارة المغولية¹³، ومن ذلك سعى جاهدا إلى توفير العمود الفقري لنجاح أي مشروع اقتصادي من خلال توفير الأمن عبر الطرق التجارية¹⁴ ووضع حدا لقطاع الطرق¹⁵، كما قرب التجار إليه، ونصّب بعضهم في المناصب الإدارية والاقتصادية سعيا منه إلى تغيير نمط الاقتصاد المغولي القديم القائم على الصيد والرعي واستبداله باقتصاد حديث يقوم على التجارة. لأجل ذلك بذل جنكيز خان مجهودات جبارة في مجال تأمين الطرق التجارية، وعلى رأسها طريق الحرير¹⁶، وأنزل عقوبات صارمة على القبائل المهددة للأمن، ووضع حدا لظاهرة اللصوصية التي عرفت انتشارا كبيرا قبل اعتلائه سدة الحكم، مستفيدة من الفراغ السياسي الذي عرفته المنطقة قبل تأسيس الدولة سنة 1206م¹⁷.

ب وفاة جنكيز خان سنة 1227م خلفه ابنه أوكتاي Ögödei Khan (1229-1241م) الذي لم يكن أقل حرصا من والده في النهوض بالقطاع التجاري، ولقد ساعدت سياسة أوكتاي في جذب أكبر عدد من التجار من خلال تفتحه على الأجناس والثقافات الأجنبية، وإصداره للعفو العام¹⁸، وكان لهذا القآن عناية خاصة بالعمران، وقد لوحظ عن هذا الحاكم تدعيم خاص للتجار من خلال تشجيعهم على جلب السلع والمنتجات وشرائها منهم بأكثر من قيمتها الحقيقية، كما عمل على تطوير وتحديث نظام البريد¹⁹ الذي أطلق في عهد والده وزوده بالحراس والمرافق الضرورية التي يحتاجها المسافرون والتجار. وما من شك في أنّ الخطوات التي قام بها الخاقان²⁰ في مجال النهوض بالقطاع التجاري عامة وسعيه إلى تطوير وتحديث نظام البريد المغولي قد استفاد منها طريق الحرير أيما استفادة، خاصة في القسم الشرقي من طريق الحرير والذي يُعرف بالمرحلة الصينية.

اعتلى كيوك خان بن أوكتاي Güyük Khan (1241-1247م) عرش الإمبراطورية المغولية بعد وفاة والده²¹، ومرور مرحلة الوصاية التي تمسكت بها أمّه توراكيينا خاتون²²، عرفت خلالها البلاد اضطرابات سياسية بسبب شغور منصب الخاقان، ومهما يكن من أمر فإن كيوك خان لم تكن له جهود تلك التي بذلها أوكتاي أو جنكيز خان، وذلك لقصر فترة حكمه من جهة، وانشغاله بتنصيب أركان الحكم من جهة أخرى، ومع ذلك بدأت في عهده مرحلة جديدة في التجارة المغولية المتمثلة في بداية العلاقات المغولية الأوروبية وتبادل الرّسل والسفارات بين الطرفين، وهو ما سمح ببداية صفحة جديدة من العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب. فقد استغل المبعوثون الأوروبيون طريق الحرير للوصول إلى البلاط المغولي²³.

الواقع أن جهود القانّات المغول الأوائل انصب على الأقاليم الشرقية من أراضي الإمبراطورية أي بلاد منغوليا والصّين، في حين عرف القسم الغربي من الإمبراطورية دمارا كبيرا بسبب حرب الإبادة التي انتهجها هؤلاء⁽²⁴⁾، مما أدى إلى فقدان طريق الحرير البري أهميته كهزمة وصل بين تجارة الشرق الأقصى والغرب الأوروبي⁽²⁵⁾ وأدى كذلك إلى انتعاش الطريق البحري على حساب القاري⁽²⁶⁾ نظرا للدمار الكبير الذي حل في المنشآت والعمران خاصة في المرحلة الثانية والثالثة من طريق الحرير⁽²⁷⁾.

4) طريق الحرير في النصف الثاني من القرن 13/هـ

إنّ الجهود والمحاولات التي قام بها خاقانات المغول في النصف الأوّل من القرن السّابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي قد آتت أكلها في مجال النهوض بالاقتصاد المغولي القائم على الرّعي والصّيد والاكتفاء بالضروري من العيش، إلى اقتصاد متنوع قائم على الزّراعة والتجارة والضرائب والجزية، وتأتى ذلك بعد أن تمكن المغول ضبط الأمور، وإقرارهم للأمن عبر الطرقات والأسواق التّجارية، والسهر على تنظيم وتحسين وسائل النقل والمواصلات²⁸، فلا غرو أن يستفيد أحفاد جنكيز خان من الجهود المضنية التي قام بها أسلافهم في سبيل إحياء الطرق التجارية عامّة وطريق الحرير خاصة.

الواقع أنّ مشروع جنكيز خان القاضي بتأسيس إمبراطورية عالمية ممتدة من الصين شرقا إلى البحر المتوسط غربا لم يكتمل في حياته إلا أن أحفاده المتعاقبون حرصوا تمام الحرص على إكمال هذا المشروع، لأجل ذلك لوحظ توسع الجحافل المغولية غربا إلى غاية

الوصول إلى ضفاف شواطئ البحر المتوسط عبر إخضاع الدول والشعوب الواقعة بين بلاد منغوليا والبحر المتوسط مثل الدولة الخوارزمية وبلاد فارس والعراق،²⁹ فلا غرو أن التوسعات المغولية غربا وجنوبا تَمَّت في كل الأراضي التي يمر عبرها طريق الحرير من انطلاقه في أقصى الشرق من الصين وصولا عند الشواطئ الشرقية من البحر المتوسط³⁰.

ومهما يكن من أمر، فإن التجارة الدولية تأثرت سلبا بالأوضاع الأمنية المتردية الناجمة عن الغارات المغولية وذلك في القسم الغربي من الإمبراطورية المغولية³¹ نظرا لاشتعال قتيل الحروب والغزوات التي قاموا بها في إيران والعراق وبلاد الشام³²، وأصبح الطريق البري التجاري الرابط بين الشرق الأقصى وغربها شبه مُغلق في الشرق الأدنى مما نجم عنه ازدهار الطريق التجاري البحري، هذا في الربع الأول من النصف الثاني من القرن الثالث عشر³³، لكن هذا الوضع لم يدم طويلا، إذ سرعان ما قام المغول بإعادة إعمار المناطق التي خضعت لهيمنتهم، وشجعوا التجار الأجانب على ارتياد أسواقهم³⁴ وقاموا أيضا بتخفيض الضرائب على البضائع والسلع التجارية³⁵ وشجعوا الصلات التجارية مع القوى الإسلامية³⁶ والأوروبية³⁷ وأصبح طريق الحرير الذي يمتد على أكثر من ثمانية آلاف كيلومتر خاضع لسلطة سياسية وأمنية واحدة.

وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي اعتلى منكو بن تولوي بن جنكيز خان **Möngke Khan** (1259-1251م) مقاليد حكم الإمبراطورية المغولية، واجه منكو تحديات داخلية ناجمة عن شغور المنصب الخاقان الأعظم، وما إن وطد الأمور في أرجاء إمبراطوريته راح في تطبيق الإصلاحات الداخلية، ومنها التفتح على الأمم المتحضرة وعدم النظر إلى الرعايا على أساس ديني أو عرقي³⁸ ونبذ سياسة التعصب الديني والبداءة وتجنب سياسة الإقصاء التي طبقتها أسلافه، فحاول جاهدا إلى بسط العدل بين رعاياه، وخفف القيود والضرائب على الأهالي، وأصدر تعليمات صارمة لقواده وولاته بعدم استغلال ممتلكاتهم بطريقة غير شرعية³⁹.

وإمعانا في الحركة الإصلاحية التي باشرها منكو فقد استعان بجملة من المصلحين الإداريين والاقتصاديين، ومن هؤلاء تبرز شخصية متألفة في المجال الإصلاحية ألا وهو الأمير أرغون آغا الأويراتي Argon Agha Auerati (ت. 673هـ/ 1274م) انتهج هذا

الأمير خطة لإصلاح الأوضاع الإدارية والاقتصادية في كامل أنحاء الإمبراطورية المغولية، وحظي هذا المصلح وإستراتيجيته الإصلاحية بترحاب كبير لدى منكو الذي أعطاه مطلق الصلاحيات في مباشرة مهامه الإصلاحية التي قام بها على أكمل وجه⁴⁰.

انتهج منكو سياسية أسلافه القائمة على التوسع والسيطرة على ما يُمكن السيطرة عليه⁴¹، واعتمد على جبهتين أساسيتين، وهما جبهة الجنوبية المتمثلة في الصين والجبهة الغربية المتمثلة في بلاد فارس والعراق وبلاد الشام، أما الجبهة الصينية فقد وكلها لأخيه قوبلاي Kublai Khan الذي استغل خبرته العسكرية والدبلوماسية في فتوحاته الصينية، وقد تأثر هذا القائد بالحضارة الصينية إلى درجة اعتناقه للديانة البوذية⁴² المنتشرة في الصين، وأما الجبهة الغربية فقد أوكلها لورثة جغتاي بتركستان تمهيدا لفتح الهند، ومنح الضوء الأخضر لأخيه هولوكو لفتح عاصمة الخلافة العباسية والأراضي التابعة لها⁴³. وما من شك في أن الفتوحات التي باشرها المغول في الجبهتين الصينية والغربية قد كان له أهمية إستراتيجية لدى المغول بسبب إحكام هيمنتهم على معظم طُرُق الحرير الرابطة بين الشرق الأقصى والغرب الأوروبي مروراً بدول العالم الإسلامي في بلاد المشرق.

5) بوادر التحالف المغولي الأوروبي وأثره على طريق الحرير

بدأت أولى محاولات هذا التحالف قبل اعتلاء منكو مقاليد حكم الإمبراطورية وكان ذلك بالضبط في سنتي (1245-1247م) برئاسة جان دوبلان كاربان Jan Doblan Carban استطاع هذا الراهب ومن معه من أتباعه الوصول إلى عاصمة المغول قره قورم Qara Qurum⁴⁴ برسالة من البابا اينوسان الرابع Pope Innocent IV (1243-1254) ولويس التاسع الملك الفرنسي Louis XI (1226-1270م)⁴⁵ إلا أن محاولة إقامة حلف بين المغول والقوى النصرانية باءت بالفشل نظراً لتمسك كل طرف بمطالبه⁴⁶.

ومع وصول منكو إلى الحكم أعاد الأوروبيون الكرة عليهم ينجحون في إقامة حلف مغولي نصراني مستغلين في ذلك شخصية منكو المتفتحة على الأجناس والثقافات والديانات الأجنبية، فقد قيل عنه بأنه كان يحضر أعياد البوذية والنصرانية وحتى الإسلامية على السواء، بالإضافة إلى ذلك أن والدة منكو كانت على دين النصرانية النسطورية. فاستغل الملك الفرنسي هذا الظرف، وأرسل إلى منكو سفارة بقيادة وليم روبرك William Rubrick إلى البلاط المغولي بقره قورم انطلقت من

عكا أوائل سنة 1253م ووصل إلى العاصمة المغولية في أوائل سنة 1254م، وقد وفرت السلطات المغولية كل وسائل الراحة والترفيه للوفد الأوروبي على طول الطريق التجاري الكبير الرابط بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى والذي عُرف فيما بعد ذلك بطريق الحرير⁴⁷. الواقع، أن المهمة التي أوفدها الملك لويس التاسع لم تأت أكلها في المجالين السياسي والديني، نظرا لتثبيت كل طرف بمطالبه، فإنها نجحت في المجال الاستكشافي ومن ثم التجاري، ذلك أن الأوروبيين خلال عدة قرون خلت لم يتصلوا بالشرق الأقصى⁴⁸ مباشرة وإنما عن طريق الوساطة الإسلامية، فيمكن اعتبار البوادر الأولى للتحالف المغولي النصراني قد أثمرت نتائجها في عهد الخاقان منكو الذي ارتبط مع الأوروبيين بعلاقات دبلوماسية وتجارية، استطاع من خلالها الغرب الأوروبي الولوج إلى الشرق الآسيوي الذي ضلوا متطعين إلى الوصول إليه نظرا لحاجتهم لسلع الشرق الأقصى منه منذ قرون خلت⁴⁹.

(6) عوامل ازدهار طريق الحرير

تعاضدت العديد من الظروف والعوامل التي أعطت دفعا لانتعاش وحيوية طريق الحرير خاصة في القسم الشرقي من الإمبراطورية المغولية التي عرفت استقرار ملحوظا مقارنة برُبوع الزوايا الأخرى من الإمبراطورية والتي كانت تزار تحت وطأة هجمات الجيوش المغولية.

(أ) إصلاحات منكو

ما من شك في أن منكو كان دبلوماسيا بارعا، وذلك بفضل نبذه التعصب الديني وتفتحته على العالم الخارجي، فلا غرو أن تصبح عاصمته قره قورم مركزا للدبلوماسية العالمية، وقد دَوَّن هذا المشهد وليم روبك المبعوث الخاص للملك الفرنسي لويس التاسع الذي أبصر سفراء وسفارات من عدة جنسيات في البلاط المغولي منها: سفارات قادمة من الخليفة العباسي ببغداد⁵⁰ وأخرى جاءت من اليونان، وسفارات من ملك دلهي بالهند وأخرى من لدن سلطان سلاجقة الروم، وروسيا وكردستان، كما شاهد المبعوث الفرنسي تجارا من أوروبا، وكان ذلك سنة 1253م⁵¹.

نجحت إصلاحات منكو الداخلية والخارجية في جل المجالات، فأما داخليا فقد استطاع إلى حد كبير وضع حد للخلافات والنزعات القائمة بسبب شغور منصب الخاقان، وتمكن أيضا من القضاء على

مناوئيه، وأفلح إلى حد كبير في انتقاء الساسة والحكام والولاة والأمراء، كما نجح في الميدان الإداري وقضى على كثير من المظالم والتعسف بحق الأهالي، وعُرف عنه البعد عن حياة الترف والبهجة وكان من أكثر حكام المغول تأثراً بجده جنكيز خان وبقانون الياسا، وعُرف عنه الشجاعة ورجاحة العقل والانضباط في كيفية المحافظة على النظام العام والسهر على تطبيقه على الرعية⁵².

ومن جملة الإصلاحات الاقتصادية التي باشرها منكو وأثرت إيجابياً في الحياة الاقتصادية عموماً وفي التجارة خصوصاً هو محاولته تخفيف العبء على الرعية والتي أثقلت كاهلها بالضرائب المرتفعة فعمد إلى وضع حد للتجاوزات والابتزاز في مجال فرض وتحصيل الضرائب، ومن ضمن إستراتيجيته الاقتصادية والاجتماعية تلك الرامية إلى تحسين ظروف معيشة السكان وليس توفير مزيداً من الأموال لصالح خزينة الدولة، وإمعاناً في الحركة الإصلاحية فإن منكو جمع حكام وولاة الأقاليم في اجتماع قوريلتاي، ألقى فيها الخاقان خطاباً يشجع ويحث فيه حكام الأقاليم على مباشرة الإصلاحات ومنها تعمير المدن ورتق ما يمكن رتقه مما حل بالبلاد والعباد بسبب الحروب المدمرة التي شنها المغول، ومما قاله في هذا الشأن: « ومما لا شك فيه أن كلاً منكم أدري باحتياجات إقليمه ورعاياه، وأدري بالطريقة التي يمكن بها تدارك الخلل »⁵³.

وفي المجال التجاري أورد الجويني الإصلاحات التي باشرها منكو إذ أن أمراء المغول استغلوا مرحلة فراغ السلطة ب وفاة كيوك خان، ولم يتورعوا في استغلال مرافق الدولة لمصالحهم الخاصة، ومما أورده الجويني في هذا الخصوص، قوله: « وبعد وفاة كيوك خان كان أبناء الملوك قد درجوا على أن يُصدر كل واحد منهم أوامر بكثرة بالغة وانشغلوا في أعمال تجارية ودفَعوا بالرسول إلى كل أرجاء العالم، وتمسك كل شريف ووضع بالحماية لكونه تاجراً وتنصت الرعية من ضخامة العبء، فأصدر الإمبراطور الأمر بأن يرد كل واحد منهم ما أخذه ... وأن يمتنع الأمراء من الآن فصاعداً عن إعطاء أو كتابة الأوامر والتعليمات المتعلقة بأي أمر يخص الإدارة المالية في الولايات دون استشارة مندوبي البلاط، وألا يزيد ما يمتطيه كبار الرسل والمبعوثين عن أربعة عشر بغلاً، وأن ينتقلوا من محطة إلى محطة، ولا يدخلوا قرية أو مدينة ليس لهم فيها عمل محدد، وألا يتزودوا من المؤونة بما يزيد على ما يتقوت به فرد واحد من الرجال »⁵⁴.

أما خارجا نجح في إعادة هيبه وقوة الإمبراطورية المغولية على مسرح الأحداث الدولية، وذلك عبر استعمال أسلوب الترغيب والتفتح على مختلف الأجناس والثقافات هذا في القسم الشرقي من الدولة⁵⁵، أما الجبهة الغربية والجنوبية فقد سير لها الجيوش الجرارة وفتح جبهات متعددة ولاسيما في المناطق التي تسلكها القوافل التجارية، وهذا ما أثر سلبا على حيوية وانتعاش طريق الحرير البري في قسمه الغربي، فحصل انسداد شبه تام بسبب الدمار الذي حل بالمدن والقرى التي يعبرها طريق الحرير، والمُلاحظ عن تحرك الجيش المغولي من الشرق إلى الغرب كان موافقا لخط سير طريق الحرير⁵⁶.

ب) شخصية قوبيلاي ودورها في ازدهار الطريق

إن وصول قوبيلاي (1259-1294م) إلى الحكم يعد بحق العصر الذهبي للإمبراطورية المغولية ليس في المجال السياسي والفتوحات فحسب، وإنما في المجال الاقتصادي عامة والتجاري خاصة⁵⁷، وما من شك في أن الإجراءات التي اتخذها حكام المغول المتعاقبون بدءا من جنكيز خان إلى غاية منكو في إحياء الطرق التجارية عامة وطريق الحرير خاصة قد أتت أكلها في عهد قوبيلاي الذي استفاد من الخطوات والتضحيات التي قدمها أسلافه، وعلى الرغم من سيطرة المغول على طول طريق الحرير وفي جميع مراحل⁵⁸، إلا أن الخاقان لم يكتف بذلك، وإنما طرح جملة جديدة من الإصلاحات والمشاريع ساهمت في إعادة بعث طريق الحرير، ومن عوامل ازدهار هذا الطريق، يوجد:

حظي قوبيلاي بتجربة طويلة في الصين قبل اعتلائه للعرش المغولي، فقد عينه أخوه منكو على الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية، ومنحه مطلق التصرف في الأراضي التي يقوم بفتحها (الصين)، وهذا ما أكسبه شخصية مغايرة لأجداده تجلت في تأثره بالحضارة الصينية وأشرب بثقافتها واعتنق البوذية وتعامل مع الرعية باللين والرفق، وهو ما ساعده على تطبيق النظام الاقتصادي المعمول به في الصين⁵⁹، واكتسب شخصية قوية مكنته من أداء مهمته بجدارة واستحقاق⁶⁰.

شرع قوبيلاي منذ وصوله على هرم السلطة المغولية في بعث النشاط التجاري المغولي، فقد أعطى أوامره بإصلاح الطرقات والجسور، وزرع الأشجار الظليلة على طول الطرق البرية⁶¹ وباستيلاء المغول على إمبراطورية السنج في الصين خلّصت لهم آسيا الشرقية والشرق الأقصى مما ساهم في إحياء الطرق التجارية المعطلة في

المنطقة⁶². وبفضل انتشار الأمن وتشجيع قوبيلاي للتجارة وبعثه للنظام البريدي الذي عرف تطورا لا نظير له وصلت السلع المغولية والصينية من توابل وحرير وخزف إلى الخليج العربي⁶³ ومنه إلى أسواق الغرب الأوروبي. فلا عجب أن ينتشر السلام المغولي Pax Mongolica والذي دام أكثر من قرن، ابتداء من 1260 إلى 1368م⁶⁴، وهو العصر الذهبي الثالث والأخير لطريق الحرير خلال العصرين القديم والوسيط⁶⁵.

(ب) استكمال فتح الصين

تُمثل الصين القلب النابض والمرحلة المهمة من مراحل طريق الحرير، فبدون السيطرة عليها لا يمكن لطريق الحرير القيام بدوره في مجال انتقال السلع والبضائع من الشرق الأقصى إلى الغرب، فكثير من السلع والبضائع المنقولة عبر طريق الحرير تعتبر ذات إنتاج ومنشأ صيني، لذلك حرص جل الحكام المغول على فتح كامل وشامل للصين، ولم يتأت لهم ذلك إلا في عهد قوبيلاي، والذي لم يتمكن من فتحها إلا بعد عشرين سنة بعد أن قدّم استعان بجيوش كثيرة ومعدات عسكرية، وعين لمرافقته قادة عسكريين الكبار، ووضع تحت قيادته كل الأمراء الذين كانوا قد استوطنوا تلك النواحي (الصين) يمينا ويسارا⁶⁶. فانقلبت بذلك سيادة طريق الحرير من الصينيين إلى المغول⁶⁷.

اتسعت مساحة الإمبراطورية المغولية، ووصلت إلى أقصى اتساع لها على الإطلاق في عهد الخاقان قوبلاي، وقد ضمت إليها كل من الأراضي الصينية⁶⁸ والكورية وإقليم التبت والجزء الشمالي من الهند إلى غاية نهر الكنج، وضمت إليها أيضا آسيا الوسطى وإيران والعراق وبلاد الشام إلى أن تاخمت حدودها البحر المتوسط باستيلائهم على منطقة آسيا الصغرى، وهذا الاتساع لم يتحقق لأي إمبراطورية متصلة الأراضي من قبل ولا من بعد⁶⁹، ومعلوم أن هذا الاتساع خدم طريق الحرير الذي أثبت التاريخ والاستقراء بأنه يزدهر كلما خضع لوحدة سياسية بعيدا عن الانفلات الأمني وفرض قطاع الطرق والعصابات هيمنتهم عليه، فبوجود هيبة الدولة وضربها بيد من حديد لكل من تسول له نفسه المساس بأمن التجار وبضائهم وهو ما كان عليه أمر الطريق في عهد قوبيلاي⁷⁰.

ج) تفتح المغول مع الأجناس والديانات

عجّت الأسواق والمدن المغولية والصينية بتجار وجاليات من جنسيات مختلفة كالأوروبيين⁷¹ والعرب والنصارى والفرس والهنود بفضل تبني المغول سياسة مرنة ونبذهم للتعصب⁷²، ومن الجنسيات والتجار الذين شاع صيتهم وهم التجار العرب المسلمون والذين تبوعوا شأوا عظيما عند معظم حكم المغول خاصة عهد قوبيلاي⁷³، ومن هؤلاء يُوجد التاجر أبو شوقي الذي تُطلق عليه المصادر الصينية اسم Puhou-Geng تمكن هذا التاجر من تقليد منصب مدير مكتب السفن التجارية في ميناء فوانغتشو Guangzhou وأشرف كذلك على التجارة البحرية في مقاطعة فواندونغ Guangdong⁷⁴، واستطاع التجار المسلمون في عهد أسرة سونغ إنشاء أكبر تجمع للتجار المسلمين في كانتون (خانقو Khangu) وفي مدينة زيتون كذلك⁷⁵، مما نتج عنه بروز مظاهر الأبهة والثروة في جل الأسواق المغولية⁷⁶.

شهد الرحالة الأوروبي ماركو بولو Marco Polo بأن الكارثة التي لحقت بالباندقة لما طردوا من القسطنطينية سنة 1261م، واختار هو وأسرته اللجوء إلى تبريز، حينذاك وفدت عليهم سفارة من لدن الخاقان قوبيلاي خان قد اتصلت بالأخوين نيكو ومافيو بولو Niccolo and Maffeo Polo وهما يقيمان بتبريز Tabriz يلتبس منهما القدوم بتجارتهما إلى بكين قاعدة المغول العظام⁷⁷.

وعلى الرغم من الحظوة والوجاهة التي حظي بها التجار المسلمون في الأراضي المغولية، إلا أن الخاقان المغولي وصله تحذير من أباقا بن هولوكو الذي نفره من المسلمين، فعمل قوبيلاي على إهانة المسلمين وجردهم من التسهيلات والامتيازات التي منحت لهم من قبل، حتى روي عنه أنه أرغم المسلمين على تناول اللحم على غير طريقة المسلمين (الذبح) وأنزل أئمة المسلمين من المنابر وضيق عليهم، لم يتفطن الخاقان المغولي من مغبة تصرفاته العدائية ضد المسلمين، حينذاك قرر التجار المسلمون هجر الأسواق المغولية، مما نتج عنه ندرة الكثير في السلع والبيضائع عبر الأسواق المغولية، وانصرف المسلمون إلى جزر الهند الشرقية واستغلوا الطرق البحرية بدل البرية المارة عبر الأراضي المغولية، دامت مدة المقاطعة الإسلامية للتجارة المغولية سبع سنوات، أجبرت خلالها الحاكم المغولي التراجع عن السياسية العنصرية المتطرفة ضد المسلمين، وأخذ في استمالتهم، وأغراهم بالامتيازات

والتسهيلات للرجوع إلى الأسواق الصينية والمغولية، حتى قيل بأنه سيّد مسجدا للمسلمين يتسع إلى الآلاف من المصلين⁷⁸.

وتمكن المسلمون عامة والتجار منهم خاصة التغلغل في الحياة العامة المغولية خاصة في المناطق الصينية فمن بين اثني عشر مقاطعة صينية ثمانية منهم يتولى تدبيرها حكام مسلمون، وقع هذا في عهد قوبيلاي وذلك نظرا لكفاءتهم وأمانتهم⁷⁹.

وساعد على إشاعة الأمن في الأراضي المغولية طبيعة العادات والتقاليد هناك فقد أفاد قلقشندي في سرد أخلاق وسجايا المغول بقوله: « ومن طرائفهم أنهم لا يتعصبون لمذهب، وأن لا يتعرضوا لمال ميت أصلا، ولو ترك ملئ الأرض، ولا يدخلونه خزانة السلطان... وأما حالهم في طاعة ملكهم فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلطينهم، لا لمال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم⁸⁰».

د) محاولة إقامة الوحدة المغولية:

انقسمت الإمبراطورية المغولية في النصف الثاني من القرن 7/13م إلى أربعة كيانات سياسية أولها في الصين ومنغوليا، وعُرفوا بالمغول العظام عاصمتهم قوراقورم والثانية في بلاد تركستان، وأطلق عليهم مغول جغتاي وثالثة في جنوب روسيا عُرفت ببلاد القبچاق والرابعة في بلاد فارس والعراق، أُلقت بإيلخانية مغول فارس⁸¹، فطريق الحرير كان يمر على كل هذه المقاطعات⁸² وعلى الرغم من أنّ الوحدة السياسية بين الخانات المغولية لم تتحقق على أرض الواقع فإن الطرق التجارية البرية وعلى رأسها طريق الحرير لم يتأثر سلبا بهذا التقسيم، بل بالعكس ساهم في تقسيم أعباء حماية الطريق وحفظه وصيانته محاطته المبتوثة على طول الطريق⁸³، فغدت كل إيلخانية مسئولة عن الشطر الذي يمر به طريق الحرير، ولا ننسى أن صلة القرابة التي تجمع بين هذه الدول حتمت عليهم التعاون فيما بينهم لتنشيط حركة التجارة⁸⁴، دلّ على هذا الوفاق بين الدول المغولية تبادل السفراء وفتح الطرق التجارية الرابطة بين الشرق الأقصى والغرب الأوروبي⁸⁵.

و) حاجة الغرب إلى سلع الشرق

ساعد على ازدهار طريق الحرير رواج سلع الشرق الأقصى في الأسواق الأوروبية، وأصبح الغرب الأوروبي على وجه الخصوص بحاجة إلى سلع وبضائع الشرق الأقصى⁸⁶، فلم تبق التوابل والأحجار الكريمة من السلع الكمالية التي يقتصر استهلاكها على طبقة معينة، بل

أصبحت تُستهلك على نطاق واسع، واحتلت الأقمشة الذهبية المصنوعة من الحرير مكانة مرموقة لدى قادة المغول وتجارهم ورعيّتهم، وأحدثت ثورة في صناعته وتطويره في الأماكن التي امتدت إليها السيطرة المغولية، ففي عز الحروب والمعارك التي شنّها المغول غربا وجنوبا تعمّدوا الإفادة من معامل ومصانع الأقمشة وأسروا الصناع والحرفين ولاسيما المهرة منهم، وفرضوا عليهم العمل في الورشات والمصانع التي تقبع تحت سيطرتهم، مما نتج عن ذلك استفادة المغول بخبرة الصينيين والإيرانيين ومختلف شعوب آسيا الوسطى وهو ما سمح بظهور أقمشة جديدة أطلق عليها « الأقمشة التتارية »، والتي احتلت مكانة مرموقة وشهرة كبيرة في الأسواق المغولية وحتى الأوروبية⁸⁷.

6) نتائج ازدهار طريق الحرير

على العلاقات الدولية:

أدى ازدهار طريق الحرير إلى احتكاك حضاري بين شرق القارة الآسيوية وغربها من جهة وبين آسيا وأوروبا من جهة أخرى، وساهم أيضا في ازدياد حجم التجارة الدولية بفضل تعرف الشرق على سلع الغرب، وتعرف الغرب على سلع الشرق، هذا وكان لطريق الحرير الفضل الكبير في تطور النشاط الصناعي⁸⁸ بفضل توفر المادة الأولية. وحتى الزراعة استفادت من ازدهار طريق الحرير⁸⁹.

استغل أتباع الديانات الإسلامية والنصرانية والبوذية⁹⁰ ازدهار طريق الحرير لنشر ديانتهم في أغوار القارة الآسيوية، والتي لم تكن سهلة المنال قبل انفتاح طريق الحرير، وهكذا ساعد هذا الطريق المبشرين والرحالة والتجار اقتحام أماكن معزولة لولا سيادة الأمن عبر طول طريق الحرير⁹¹، وحتى البنيات العمرانية كان لها نصيبا غير منقوص من ازدهار طريق الحرير بفعل تأثير وتأثير الشرق في عمارة الغرب والعكس، وخاصة أماكن العبادة⁹²، ومن مظاهر تأثير ازدهار طريق الحرير على العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الشرق والغرب، يوجد:

إنّ حركة الغزو المغولي لشرق آسيا وغربها عُد عند كثير من الباحثين كارثة إنسانية وحضارية واقتصادية لم تشهد لها البشرية مثيل، وهذا ادعاء له ما يُبرره ويُصدّقه، ومع ذلك كلّه، فيمكن للباحث أن يرصد بعضا من ايجابيات الحركة المغولية، ومن ذلك، اتصال حضارة الشرق الأقصى والمغول بالحضارة الإسلامية وما انجر عنه من تفاعل واحتكاك حضاري كبير بين شرق القارة وغربها، هذا وقد أدت الطرق البرية الرابطة بين الشرق الأقصى والسواحل الشامية انطلاقا من

شنغهاي الصينية إلى مدن آسيا الوسطى كبخارى وسمرقند ليتوجه إلى تبريز⁹³ التي صارت محطة مهمة بعد الغزوات المغولية⁹⁴ ليصل إلى العراق فبلاد الشام⁹⁵ أو موانئ البحر الأسود، وهذا المسلك التجاري قام بدور مهم في مجال انتقال السلع والبضائع من الشرق الأقصى إلى الغرب الأوروبي وبالعكس⁹⁶. وساهم ازدهار طريق الحرير أيضا في انفتاح المغول على العالم الخارجي، وأدى إلى احتكاكهم بأجناس وجنسيات مختلفة، مما اثر في عاداتهم وتقاليدهم⁹⁷، كما سمح ازدهار طريق الحرير أيضا في وصول سلع الغرب إلى الشرق الأقصى هذا من الجانب الاقتصادي.

وفي هذا المضار تُفيد الباحثة سونيا ي. هاد كلاما قيما حول دور التجارة في العلاقات الحضارية بين الشعوب والقبائل عبر مختلف الأزمنة، بقولها: « كانت تجارة التوابل منشأ العلاقات بين الأمم، منها تكونت حلقات الاتصال بين فترات التاريخ ولها يرجع الفضل في إيجاد الاتصال بين الشرق والغرب بصورة منتظمة، فالطرق التي تسلكها القوافل المحملة بتوابل الشرق لم تلبث أن أصبحت أهم شرايين الاتصال في آسيا وافريقية، وقد عدل بعض الوقت، في بعض الأزمنة، عن انتهاج بعض هذه الطرق، ولكن قدر لها أن تستعيد ما كان لها من أهمية بعد عدة قرون⁹⁸ ». «

أ) على المغول

الواقع أن ازدهار طريق الحرير جعل من المغول قوة دبلوماسية وسياسية، فتوافد عليها السفراء والقناصل من مختلف الجنسيات، سعيا منهم لربط علاقات سياسية أو الاقتصادية معها، وكان تأمين طريق الحرير إبان عصر السلم المغولي مشجعا للسفراء والتجار للولوج إلى البر الآسيوي⁹⁹.

وانتعشت حركة انتقال الأعشاب من الشرق الأقصى وإلى الغرب الأوروبي وبالعكس، ومما يُروى في هذا الشأن أن المغول اكتشفوا الفوائد الطبية لنبات الراوند أثناء حملاتهم وحروبهم ضد قبائل التانغوت الواقعة غرب مملكة زيا، وباكتشاف فوائد هذا النبات أصبح من ضمن السلع المنقولة عبر طريق الحرير شرقا وغربا¹⁰⁰.

ساهم انفتاح الطرق التجارية وعلى رأسها طريق الحرير في خفض تكاليف الأطعمة المستوردة، فغداة تأسيس الإمبراطورية المغولية سنة 1206م كان الطعام المستورد نادرا وحكرا على الأغنياء، إذ لم يكن باستطاعة فقراء المغول الحصول عليه بسبب ارتفاع قيمته،¹⁰¹

ومع افتتاح طريق الحرير أمام التجارة الدولية قلّ احتكار السلع وارتفع العرض مما أدى إلى انخفاض السلع الواسعة الاستهلاك.

وأدى سيطرة المغول على طرق الحرير إلى تغيير بعض مسارات الطريق للحاجة، وفي هذا الصدد أفادت الباحثة سونيا بي. هاد نسا جاء فيه: « قامت الإمبراطوريات وسقطت، وازدهرت عواصم ومدن كانت كالمملكات ياتمر بأمرها العالم ثم ما لبثت أن هوت على عروشها، واندثرت أمم كان لها السيادة من بين الأمم وخلفتها غيرها، ولكن مهما يكن من أمر التقلبات في المحيط السياسي العالمي ومهما يكن من تعددها وتشعبها، ومهما يكن من تحول مراكز المدينة وانتقالها من مدينة إلى أخرى فإن شيئا لم يستطع شل حركة تجارة التوابل أو منع ازدهارها واطراد نموها..... وهناك طرق لم تنقطع القوافل عن سلوكها منذ آلاف السنين، بينما فتحت طرق جديدة منها ما اقتضت فتحه أحداث معينة لها خطرها وأهميتها في محيط السياسة الدولية، ومنها ما اقتضاه تزايد الطلب على توابل الشرق¹⁰² ». «

(أ) على العالم الإسلامي

مثل العالم الإسلامي القلب النابض والحلقة المهمة من حلقات طريق الحرير نظرا لتوسطه بين المرحلة الأولى والثالثة من طريق الحرير وعبور معظم المسالك عبره، واعتُبر ازدهار طريق الحرير نعمة¹⁰³ على المناطق التي مرّ عليها. في حين أن اضمحلال طريق الحرير أثر سلبا على المدن التي ابتعدت عنها القوافل التجارية¹⁰⁴.

يعتقد الكثير من المهتمين بالتاريخ أن تجارة المسلمين في بلاد الصين تأثرت سلبا بالغزوات المغولية، إلا أن الدلائل والبراهين تؤكد بأن التجار المسلمون أعادوا انتشارهم في الأسواق والمدن الصينية التي أفلتت من أيدهم جراء تردي الأوضاع الأمنية في ربوع الإمبراطورية الصينية قبل السيطرة المغولية على الأراضي الصينية، ومثال ذلك مدينة كانتون التي احتوت على جالية إسلامية فاق رعاياها زهاء مائة ألف من المسلمين إلى درجة أنهم نصبوا بها قاضيا وبنوا فيها مسجدا نتيجة للثراء التي جمعها المسلمون هناك، إلا أن هذه الجالية تعرضت للإبادة الجماعية سنة 879م ولم تقم للمسلمين هناك قائمة حتى¹⁰⁵

إلا أن الواقع يُكذب هذا الادعاء، فالتجارة الإسلامية عرفت نشاطا مع سيطرة المغول على معظم الأراضي الصينية وافتتاح المغول للطرق التجارية البرية الرابطة بين آسيا الشرقية وآسيا الغربية التي

سُدت من قبل بفعل غياب الأمن والاستقرار، وبفعل سيادة وإشاعة الأمن في ربوع الإمبراطورية المغولية تمكن التجار المسلمون اقتحام الأسواق ومعاملة شعوب وقبائل لم يُتَح قبلها للمسلمين أن يتعاملوا معهم، وجنى من ذلك التجار المسلمون أرباحا طائلة على الرغم من أن العالم الإسلامي كان من أكبر متضرري الغزو المغولي¹⁰⁶.

ومما يدل على انتعاش طريق الحرير البري في ظل سيطرة المغول على الصين، هو حجم السفارات الصينية العربية تتم في معظمها بواسطة الطرق البحرية في عهد أسرة تانغ الصينية فإن الأمر تغير باعتلاء المغول السيطرة على الشرق الأقصى عموما والصين خصوصا، فأصبح الرسل والسفراء ينتقلون من وإلى الصين عن طريق خراسان وإيران في الفترة المحددة من 1277م إلى 1367م¹⁰⁷.

ج) على أوروبا

انتعشت العلاقات الأوروبية المغولية، بواسطة طريق الحرير البري على وجه الخصوص نظرا للأمن والحماية التي تمتع بها الأوروبيون في أرجاء الإمبراطورية المغولية في ظل السلام المغولي¹⁰⁸، فقد تمكن التجار الأوروبيون الولوج إلى أسواق الشرق الأقصى عبر الطريق الشمالي، والسؤال الذي يطرح نفسه بهذا الخصوص، ما هو الدافع الرئيسي للأوروبيين لسلوك طريق الحرير والوصول إلى الشرق الأقصى، هل هو الرغبة في استكشاف من أجل الاستكشاف؟ أم أن توقعهم إلى نشر النصرانية في أغوار القارة الآسيوية حثم عليهم ارتياد المسالك البرية الرابطة بين أوروبا والشرق الأقصى؟ أم أن المصالح التجارية المتمثلة في الوصول إلى أسواق ولسع الشرق الأقصى هي الدافع الأساسي في ذلك؟.

ومهما يكن من أمر، فلا يُمكن نُكران الدور التبشيري النصراني في ولوج الأوروبيين داخل البر الآسيوي¹⁰⁹، إلا أن الرغبة الجامحة لدى عامة الأوروبيين تمكنت في تحصيل المصالح التجارية انطلاقا من المقولة المشهورة القائلة « الصليب وراء التِّجَارَة »¹¹⁰ وللإجابة عن هذا السؤال نرجع إلى بوفيل E. W. BOVILL ، ومما قاله بهذا الشأن: « لقد كانت التجارة طوال العصور التاريخية من أكثر الدوافع شيوعا على الاستكشاف، أما الاستكشاف من أجل الاستكشاف فقد كان نادرا حتى الأزمنة الحديثة، وإن الرغبة في الوقوف على منشأ المنتجات الغريبة والثمينة، واكتشاف مصادر جديدة للثروة، والالتفاف

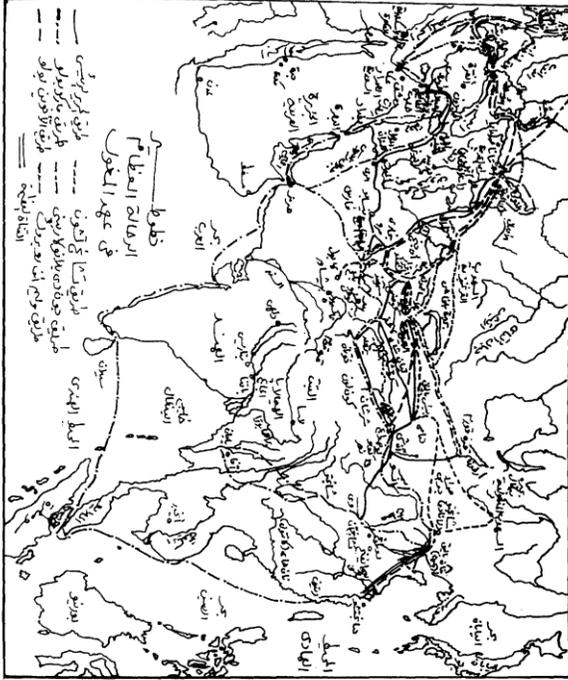
حول التجار الوستاء لعقد الصفقات رخيصة، لهي ميول متأصلة في الطبيعة الإنسانية¹¹¹».

وتعتبر العلاقات المغولية الأوروبية المباشرة الأولى من نوعها بين دول وجمهريات ومدن أوروبا الغربية من جهة والصين من جهة أخرى،¹¹² وعلى الرغم من إخفاق الأوروبيين في نشر النصرانية في أرجاء الإمبراطورية المغولية إلا أنهم أفادوا من طريق الحرير الكثير من الفوائد¹¹³، ومن ذلك ارتياد التجار والمسافرون والمبعوثون من جل السواحل الأرمينية والمحطات التجارية الميثوثة في البحر السود وتنافسوا كلهم في جلب السلع ومنتجات الشرق من الأسواق التجارية التي حظيت بها الإمبراطورية المغولية سواء في أسواق مغول فارس¹¹⁴ أو القبيلة الذهبية أو مغول تركستان فضلا عن المغول العظام، وبهذا نُقلت العديد من سلع هذه الأسواق إلى شواطئ البحر المتوسط ومنه إلى أسواق أوروبا الغربية¹¹⁵، وبهذا ضرب الأوروبيون عصفورين بحجر واحد من خلال التخلص من قيود الكنيسة المانعة للتجارة مع المسلمين¹¹⁶ وتمنكهم من اقتناء سلع الشرق الأقصى بأقل الأسعار بسبب تعمد المغول خفض الضرائب¹¹⁷، وبفضل هذه الخطوة وافتتاح طريق الحرير على مصارعيه أمام تجار أوروبا استطاع هؤلاء التخلص من الوساطة الإسلامية في التجارة الدولية.

استطاع التجار الأوروبيون نقل السلع والبضائع من وإلى الأسواق المغولية في ظل السلم المغولي، ومن أهم ما اشتغل به هؤلاء السلع الكمالية والنخبوية كالأقمشة، ومن ذلك قلد الايطاليون صناعة الأقمشة التتارية التي أنتجها المغول بفضل مزج التجربة الصينية والإيرانية وغيرها من الشعوب التي سيطرت عليها الإمبراطورية المغولية¹¹⁸.

ختاما، عرف طريق الحرير في ظلم السلم المغولي ازدهارا كبيرا، وقد استفاد منه الأوروبيون من خلال ولوجهم إلى أغوار القارة الآسيوية وجلبهم للسلع من هناك، وفتح لهم أبواب الشرق الأقصى الذي ظل مؤصدا في وجوههم إلى عدة قرون خلت، في حين استفاد المسلمون من ازدهار هذا الطريق وتمكنوا من نشر الإسلام داخل البر الآسيوي وازدهرت العديد من المدن والقرى التي مر منها طريق الحرير، وأفاد المغول أيضا من طريق الحرير ونقلوا عبره الجحافل العسكرية والقوافل التجارية. هذا وكان لازدهار طريق الحرير في

عصر السلام المغولي انفتاح حلقة جديدة ومهمة من تاريخ العلاقات الحضارية والاقتصادية والثقافية بين الشرق والغرب إبان العصور الوسطى.



خريطة تُمثل طريق الحرير

خلال النصف الثاني من القرن 7 هـ/13 م.

أيرين فرانك وديفيد براونستون : المرجع السابق، 286.

الهوامش:

- ¹ مُحَمَّدُ فَهْمِي صَدِيق : العَلاَقَاتُ التِّجَارِيَّةُ وَالتَّقَافِيَّةُ بَيْنَ المُدُنِ الصِّينِيَّةِ وَمَدَنِ آسِيَا الوُسْطَى الوَاقِعَةُ عَلَى طَرِيقِ الحَرِيرِ فِي عَصْرِ الأَسْرَتَيْنِ اليُونَانِيَّةِ وَالتِّيمُورِيَّةِ المُتَوَلِّدَتَيْنِ (685_911هـ / 1260_1505)، القَاهِرَةُ، (د. ت.)، ص. 213؛ عَصَامُ الدِّينِ عَبدُ الرُّؤُوفِ الفَقِي : الدَّوَلُ المُسْتَقَلَّةُ فِي المَشْرِقِ الإِسْلَامِي مُنْذُ مُسْتَهْلِ العَصْرِ العَبَاسِيِّ حَتَّى الغَزْوِ المَغُولِي، دَارُ الفِكْرِ العَرَبِي، القَاهِرَةُ، 1420هـ/1990، ص. 273.
- ² سَعِيدُ عَبدِ الفَتَّاحِ عَاشُور : الحَرِيرُ وَتِجَارَتُهُ فِي العَصُورِ الوُسْطَى، فِي النَّدْوَةِ العِلْمِيَّةِ العَالَمِيَّةِ بِالقَاهِرَةِ حَوْلَ العَلاَقَاتِ التَّقَافِيَّةِ بَيْنَ مِصْرَ وَبِلَادِ طَرِيقِ الحَرِيرِ المُنْعَقِدَةِ مِن 4 إِلَى 5 نَوْفَمْبَرِ 1990 ، هَذِهِ النَّدْوَةُ ضَمِنَ الدِّرَاسَةَ الشَّامِلَةَ لَطَرِيقِ الحَرِيرِ طَرُقِ حِوَارِ « اليُونِسْكُو »، مَطْبَعَةُ جَامِعَةِ القَاهِرَةِ وَالكِتَابِ الجَامِعِي، ص. 25.
- ³ مِن هَؤُلَاءِ البَاحِثِينَ الذِّينَ قَسَمُوا طَرِيقَ الحَرِيرِ إِلَى ثَلَاثَةِ مَرَاكِلَ، وَاتَّبَعَتْ طَرِيقَهُمُ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ يَوجَدُ: مُحَمَّدُ بِشَارِ الرِّفَاعِي : خَانَاتُ الطَّرِيقِ فِي سُورِيَّةِ، دَارُ نَاشِرِي لِلنَّشْرِ الإِلِكْتَرُونِي، 1436هـ/2015م، ص. 77-81.
- ⁴ مَارِيَا بِيَا بِيَدَانِي : البِنْدِيقِيَّةُ بِوَابَةِ المَشْرِقِ، تَر. حَسِينُ مُحَمَّدٍ، مَر. عَزِ الدِّينِ عَنَافِيَّةُ، هَيْئَةُ أَبُو ظَبْيِ لِلسِّيَاحَةِ وَالتَّقَافَةِ، أَبُو ظَبْيِ، 2010، ص. 180.
- ⁵ لِلْمَزِيدِ مِنَ التَّفَصِيلِ حَوْلَ مَكَانَةِ هَذِهِ المَرِحَلَةِ فِي الطَّرِيقِ التِّجَارِيَّةِ الدُّوَلِيَّةِ، أَنْظُرْ، عَلِي عَكَاشَةُ وَآخَرُونَ : اليُونَانُ وَالرُّومَانُ، دَارُ الأَمَلِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، أَرِيدُ، 1991، ص. 82-84؛ أُسَامَةُ عَدْنَانِ يَحْيَى : تَارِيخُ المَشْرِقِ الأَدْنَى القَدِيمِ دِرَاسَاتُ وَأَبْحَاثُ، أَشُورُ بَانِييَالِ، بَغدَادُ، 2015، ص. 45.
- ⁶ حَوْلَ أَهْمِيَّةِ هَذِهِ المَنْطِقَةِ بِالنِّسْبَةِ لَطَرِيقِ الحَرِيرِ خِلَالَ العَصْرَيْنِ القَدِيمِ وَالْوَسِيطِ، رَاجِعْ إِلَى: عَفِيفُ بَهْنَسِي: التَّرَاثُ الأَثَرِي السُّورِي، مَنشُورَاتُ الهَيْئَةِ العَامَّةِ السُّورِيَّةِ لِلْكِتَابِ، دَمَشَقُ، 2014م، ص. 7؛ سَعِيدُ إِسْمَاعِيلِ عَلِي: التَّرْبِيَّةُ وَالحَضَارَةُ فِي بِلَادِ المَشْرِقِ القَدِيمِ، عَالَمُ الكِتَابِ، القَاهِرَةُ، 1415هـ/1994م، ص. 63-64؛ بَاتَرِيشِيَا كَرُونُ: تِجَارَةُ مَكَّةَ وَظُهُورُ الإِسْلَامِ، تَر. أَمَالُ مُحَمَّدِ الرُّومِي، مَر. وَتَق. مُحَمَّدُ إِبرَاهِيمُ بَكْرُ. المَجْلِسُ الأَعْلَى لِلتَّقَافَةِ، القَاهِرَةُ، 2005، ص. 41.
- ⁷ جِبْرَانُ نَعْمَانَ مُحَمَّدٍ : مَحَاوَلَاتُ المَعُولِ السَّيْطَرَةِ عَلَى طَرِيقِ الحَرِيرِ (أَسْبَابُ وَنَتَائِجُ)، فِي مَجَلَّةِ دِرَاسَاتِ تَارِيخِيَّةِ، العَدَدُ 39-40، جَامِعَةُ اليرموك، اليرموك، 1991، ص. 138.
- ⁸ سُونِيَا ي. هَادُ: فِي ظَلْمِ التَّوَابِلِ، تَر. مُحَمَّدُ عَزِيزُ رَفْعَتُ، مَر. مُحَمَّدُ النِّحَاسُ، مَكْتَبَةُ نَهْضَةِ مِصْرَ، القَاهِرَةُ، 1957، ص. 27-28.
- ⁹ لِلْمَزِيدِ مِنَ الإِيضَاحِ، حَوْلَ الطَّرِيقِ التِّجَارِيَّةِ الدُّوَلِيَّةِ خِلَالَ نَهَايَةِ العَصُورِ الوُسْطَى، رَاجِعْ إِلَى: نَعِيمُ زَكِي فَهْمِي : طَرِيقُ التِّجَارَةِ الدُّوَلِيَّةِ وَمَحَطَاتُهَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، المَكْتَبَةُ العَرَبِيَّةُ، القَاهِرَةُ، 1973.
- ¹⁰ سِحْرُ السَّيِّدِ عَبدِ العَزِيزِ سَالِمُ : عَمَانَ وَطَرِيقُ تِجَارَةِ التَّوَابِلِ عِبْرَ المَحِيطِ الهِنْدِي فِي العَصْرِ الإِسْلَامِي، فِي حِصَادِ النَّدْوَةِ الدُّوَلِيَّةِ لَطَرِيقِ الحَرِيرِ بِجَامِعَةِ السُّلْطَانَ

قابوس المنعقدة من 20 إلى 21 نوفمبر 1990م، يندرج هذا البحث ضمن مشروع منظمة التربية والثقافة والعلوم «اليونسكو» لدراسة طريق الحرير، وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان، مسقط، 1412هـ/1991م، ص.23-26.

¹¹ خالد مُحَمَّد سالم العمایرة : موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك (684-923 هـ/1250-1517م)، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1428_1429هـ/1999-2000م، ص.130.

¹² محمود سعيد عمران: المغول وأوروبًا، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، (د. ت) ، ص.79.

¹³ ما من شك في أن اهتمام حكام المغول بالجانب العسكري فاق اهتمامهم بالمجالات الأخرى، وقد أورد ادوارد بري نصابه : « اهتم الحكام في هذه الدولة التي بقيت عسكرية بدوية، بالجيش والحرب فوق اهتمامهم بالمسائل الاقتصادية والعقائد الدينية ». تاريخ الحضارات العام - القرون الوسطى- ، تر. يوسف أسعد داغر وفريد مز داغر، ط.2، منشورات عويدات، بيروت، 1986، ص. إلى 376. 378.

¹⁴ أورد السيد الباز العريني نقلا عن ابن الغازي بهادور قوله: « إنه حدث في زمن جنكيز خان أن ساد الهدوء والسلام في البلاد الواقعة بين إيران وتوران، فأضحى بوسع الإنسان، أن يرتحل من ساحل البحر المتوسط إلى كوتشان، وقد حمل فوق رأسه صفحة من الذهب الخالص، دون أن يتعرض لأذى ». المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص.155.

¹⁵ W. Heyd, *Histoire de Commerce du Levant au moyen Age*, Aragonaut, inc., Publishers, Chicago, 1885-86, T. II, p.64-65.

¹⁶Xinru Liu, *The Silk Road in World History*, Oxford University Press, 2010, P.109.

¹⁷ للمزيد من المعلومات والايضاح حول هذا الموضوع، ارجع إلى **THE LIFE MONGOLS HISTORY OF THE THE SECRET : CHINGGIS KHAN**, Translated, Edited and with **OF AND TIMES** an introduction by Urgunge Onon, Routledge Curzon Press, Oxon, 2001.

¹⁸ علاء الدين عطا ملك الجويني (ت.675هـ/1276م) : تاريخ فاتح العالم جهاز كشاي، تر. السباعي محمد السباعي، تح. محمد عبد الوهاب القزويني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007، ج.1، ص.204.

¹⁹ هو جهاز عمل على ربط شرق الإمبراطورية بغربها عبر طريق مزود بعبء محطات، تتوفر كل محطة على المؤونة والمراكب ووسائل الراحة، هذا وقد عُرف نظام البريد قبل الميلاد بمئات السنين، خاصة في الأمم المتحضرة، والملاحظ أن نظام البريدي المغولي تميز عن غيره بسرعه ودقته وكثرة محطاته وعدد موظفيه الذين قُدروا بالعشرات الألف، للمزيد حول هذا الموضوع، ارجع إلى، حيدر عبد الرحمن فرطوس: نظام البريد عند المغول، في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد، العدد 80، السنة 2007م.

20 الخاقان أو قآن لفظ تركي وفارسي ، جمعه خواقين، استعمله المغول والصين بمعنى ملك الملوك أو القائد الأول للبلاد، ويُعرف أيضا بالخان الأكبر. أما الخان فهو لقب تركي يعني الحاكم أو الأمير، أستعمل هذا اللقب منذُ القرنِ الأوّل والثاني الهجريين للدلالة على شيوخ القبائل، ثم أُطلق على الولاة الذين يتبعون الحاكم الأعلى، شاع استعمال هذا اللقب في العهد المغولي، مصطفى عبد الكريم الخطيب : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، ص.157؛ مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية (1517-1924م)، دار غريب، القاهرة، 2000، ص.21.

21 نادية جاسم كاظم الشمري : الاحتلال المغولي لروسيا 1237-1480م، في مجلة العلوم الإنسانية، عدد خاص بالمؤتمر العلمي الرابع لكلية التربية للعلوم الإنسانية، (د. ت. م.)، ص.90-92. وأنظر أيضا: Donald Ostrowski, *the Mongols and Rus : Eight Paradigms*, Wiley-Blackwell, London, 2009, pp.66-82.

22 مشعل مفرح ظاهر وآلاء عيسى عيود: الغزو المغولي للإمارات الروسية (1237 - 1241م)، في مجلة كلية الآداب جامعة البصرة، العدد 17، جانفي 2014، ص.240.

23 أيرين فرانك وديفيد براونستون : طريق الحرير، تر. أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، مطابع الأهرام، النيل، (د. ت.)، 311.

24 G. B. Depping, *Histoire Du Commerce entre le Levant et L'Europe depuis les Croisades jusqu'à la Fondations des Colonies d'Amérique*, L'Imprimerie Royale, Paris, 1828, T. I, p.16.

25 عثمان أباطة فاروق : أثر تحول التّجارة العالميّة إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسّط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، القاهرة، (د. ت.)، ص.9.

26 عبد العزيز بن راشد العبيدي: التّجارة والملاحة في البحر الأحمر في عصر المماليك دراسة تاريخية، في مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عالم الكتب، مج.2، العدد 3، الرياض، (د. ت.)، ص.462.

27 مصطفى طه بدر: محنة الإسلام أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، ط.2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص.94.

28 شستر أ. بين : الشرق الأقصى، تر. حسين الحوت، مر. فريد عبد الرحمن، مكتبة مصر، القاهرة، 2002، ص.16.

29 جبران نعمان محمود : المرجع السابق ، ص.144.

30 عبد المعز عصري محمد بني عيسى : الغزو المغولي لدمشق وآثاره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية (هولامو، محود غازان، تيمورلنك)، رسالة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف د. أحمد جوارنه، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، السنة الجامعية 1997/141م، ص.144.

- ³¹ أبو الحديد المدائني(656هـ/1258م) : حملات الغزو المغولي للشرق، تعليق. مختار جبلي، دار لارماتون، باريس، 1995، ص.61-63.
- ³² محمود شاكر : التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية، ط.6، المكتب الإسلامي، بيروت، 1421هـ/2000م، ج.2، ص.330.
- ³³ شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية (41-904هـ/1498-661م) ، عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص.129.
- ³⁴ محمود سعيد عمران : المرجع السابق، ص.79-80.
- ³⁵ نفس المرجع، ص.82.
- ³⁶ أورد الباحث يونس عبد الله ماتشغ بين الصيني نقلا عن المصادر الصينية بأنه في أواخر عهد الأسرة Sung(960-1279م) والتي خضعت للهيمنة المغولية بأن تجارا من العرب والفرس المسلمين وصلوا إلى الصين كتجار برا عن طريق الشمال الغربي الصيني، وبحرا وصلوا إلى المدن الساحلية في الجنوب الشرقي الصيني، وذلك من أجل التجارة ونشر الإسلام. للمزيد من الشرح، ارجع إلى دراسة الباحث بعنوان: الإسلام في الصين رؤية موضوعية واقعية، في مجلة الإسلام في آسيا، العدد الخاص الأول، مارس، 2011.
- ³⁷ محمد حرب فرزات : حوار الحضارات على طريق الحرير، في مجلة الدراسات التاريخية، العدد39 و40، السنة1991، دمشق.1991 م ، ص.115-116.
- ³⁸ ومن ذلك تنصيبه لمحمود يلواج وابنه مسعود حاكمين على بلاد الصين وتركستان، فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ج.1، ص.210.
- ³⁹ علي محمد الصلابي : المغول (التتار) بين الانتشار والانكسار، الأندلس الجديدة، شبرا، 1430هـ/2009م، ص 184.
- ⁴⁰ لمزيد من المعلومات والإيضاح حول دور هذا الأمير في الإصلاح المغولي، ارجع إلى: رغد عبد الكريم أحمد النجار : دور الأمير أرغون آقا السياسي والإصلاحي في دولة المغول 623-673هـ/1225-1275م، في مجلة آداب الرفادين، العدد 67، الموصل، 1434هـ/2013م، ص.273.
- ⁴¹ ناديا إيبو جمال : الناجون من الغزو المغولي، ترجمة سيف الدين القصير، دار الساقى، بيروت، 2004، ص.82.
- ⁴² صبري المقدسي : الموجز في المذاهب والأديان، مر. ميسى يونس ميسى، مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون، أربيل، 2009، ج.2، ص.17.
- ⁴³ عبد السلام عبد العزيز فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، القاهرة، 1981، ص.107.
- ⁴⁴ للمزيد حول ظروف وأسباب اختيार المغول قره قورم لتكون عاصمة لإمبراطوريتهم، ارجع إلى: أحمد جلالى: المغول وحلم بناء مدينة قره قورم كعاصمة لإمبراطوريتهم، في مجلة الحقيقة، العدد 39، جامعة أدرار، 2016.
- ⁴⁵ W. Heyd, op. cit., T. II, p.66.

⁴⁶ لمزيد من الشرح حول موضوع التحالف النصراني المغولي، ارجع إلى : جوزيف نسيم يوسف : **العدوان الصليبي على بلاد الشام هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة**، دار الكتب الجامعية، ط.3، الإسكندرية، 1971، ص.254-260.

⁴⁷ بارتولد فاسيلي فلاديمير وقتش : **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، تر. صلاح الدين عثمان هاشم، قسم التراث العربي، الكويت، 1401هـ/ 1981م، ص.694-695.

⁴⁸ أفاد عبد الرحمن حميدة بأن الأوروبيين ولمدة تجاوزت 1500 سنة خلت القارة الأوروبية من المستكشفين إلى غاية ظهور ماركو بولو ففي هذه الحقبة الزمنية الطويلة خلت الكتب الأوروبية من أي ذكر لاسم القارة الإفريقية أو المناطق البعيدة من القارة الآسيوية فضلاً عن منطقة الشرق الأقصى. لمزيد من الشرح حول هذا الموضوع، ارجع إلى : **طريق الحرير بين ابن بطوطة وماركو بولو**، في مجلة الدراسات التاريخية، العدد 39 و40، جانفي، دمشق، 1991، ص.85.

⁴⁹ سليمان حزين: **المشرق العربي والشرق الأقصى علاقاتهما التجارية والثقافية في العهود الإغريقية/ الرومانية والإيرانية/ العربية**، تر. وتق. محمد عبد الغني سعودي، مرا. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص.216-217.

⁵⁰ أورد ابن خلدون سبب الصلات المغولية العباسية، وهو أن القآن منكو لما رجعت العساكر المغولية من مقاتلة باطو في الغرب التقى منكو في بخارى بالشيخ شمس الدين الباخريزي (586-659هـ/ 1190-1261م)، الذي أقتع السلطان المغولي بمكاتبة السلطان العباسي المستعصم. لمزيد من الشرح والإيضاح، ارجع إلى: ابن خلدون (ت. 808هـ/ 1406م): **الخبر عن دولة التتر**، تاريخ المغول من كتاب العبر، تج. أحمد عمراني، دار الفارابي، بيروت، 2013، ص.155-156.

⁵¹ محمد علي البار: **كيف أسلم المغول**، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، 1429هـ/ 2008م، ص.103.

⁵² الجويني : المصدر السابق، ج.2، ص.39-40.

⁵³ بارتولد فاسيلي فلاديمير وقتش : المرجع السابق، ص.687.

⁵⁴ المصدر السابق، ج.3، ص.82.

⁵⁵ هذه هي إستراتيجية أباطرة المغول بدءاً من جنكيزخان إلى قوبلاي، ينتهجوا سياسة سلمية في القسم الشرقي وخاصة في مناطق إقامة الخان كقره قورم وبكين، أما في المناطق البعيدة وخاصة في غرب الإمبراطورية فإنهم يرتكبون جرائم بشعة ضد كل من يقف في وجههم، الصياد : المرجع السابق، ص.167.

⁵⁶ جبران نعمان محمود : المرجع السابق، ص.146-147.

⁵⁷ تغيرت اهتمامات الإمبراطورية المغولية في عهد قوبلاي إلى الجانب الاقتصادي على حساب المجالات الأخرى، وهذا نظرا للصعوبات الاقتصادية التي واجهتها الدولة، وعلى رأسها التمويل السوق بالحاجيات الغذائية مع اتساع رقعة الإمبراطورية، للمزيد من الإيضاح حول هذا الموضوع، ارجع إلى: إدوار بروي وآخرون: المرجع السابق، ج.3، ص.277.

⁵⁸ لمعرفة مراحل طريق الحرير، ارجع إلى: محمد بشار الرفاعي: المرجع السابق، ص.77-81.

⁵⁹ عبد السلام عبد العزيز فهمي: المرجع السابق، ص.107.

⁶⁰ أورد جون مان وصفا لشخصية كوبلاي بقوله: « تمتع كوبلاي بمهارات إدارية رائعة، ورغم أنه لم يكن عبقريا من الناحية الفكرية، فإنه حظي بمواهب جعلته من أعظم من تمتعوا بحس الإدارة التنفيذية، فكان قاضيا رائع الشخصية متجردا من أي تحامل شخصي، وكان ذا موهبة في توظيف أشخاص يفوقونه ذكاء. وكان مثل جده يجب توظيف الموهوبين، فصار لديه فريق دولي من المستشارين، وتنافس التجار المسلمون في تقليد المسؤوليات المالية في دواوينه». كوبلاي خان ملك المغول الذي أعاد بناء الصين، تر. أحمد لطفي، مكتبة دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2013، ص.251.

⁶¹ إدوار بروي وآخرون: المرجع السابق، ج.3، ص. إلى 376. 378.

⁶² سليمان حزين: المرجع السابق، ص.218.

⁶³ جون مان: جنكيز خان الحياة والموت والانبعاث، تر. حسن عبد العزيز عويضة، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 1434هـ/2013م ص.304-303.

⁶⁴ أيرين فرانك وديفيد براونستون: المرجع السابق، ص.311.

⁶⁵ Christopher I. Beckwith, **Empires of the Silk Road, A History of Central Eurasia From the Bronze Age to the Present**, Princeton University Press, Oxford, 2009, P.195.

⁶⁶ جون مان: جنكيز خان الحياة والموت والانبعاث، ص.79-80.

⁶⁷ محمد حرب فرزات: المرجع السابق، ص.99.

⁶⁸ لم يكتف المغول باحتلال الصين وضمها إلى إمبراطوريتهم المترامية الأطراف، ويقول في هذا الشأن تشنغ يوي تشن: « بل كانت إمبراطورية أسستها الأقليات التي كانت تقطن في شمال الصين (الإمبراطورية المغولية)، لكنها كانت أسرة مترامية الأطراف استطاعت بجدارة توحيد الصين بصورة لم يسبق لها مثيل، فقد تمكنت من توحيد وتطوير اركان الصين التي تتألف من عدة قوميات مختلفة، ووضعت أساس الحدود الصينية فيما بعد». لمحة عن الثقافة في الصين، تر. عبد العزيز حمدي عبد العزيز، مكتبة مؤمن قريش، أبو ظبي 1435هـ/2014م، ص.91.

⁶⁹ إدوارد جرانييل بروان: تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي، تر. إبراهيم أمين الشواربي، مكتبة الثقافة الدينية، طهران (د. ت.)، 569.

⁷⁰ جوزيف نيدهام: موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، تر. محمد غريب جودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص.122.

71 أفاد عفاف مسعد العبد بأن البلاط المغولي أصبح تحت أنظار الأوروبيين في عهد قوبلاي، وقد توافد إليه العديد من الحرفيين والصناع لعرض مهارتهم وتجربتهم كل في المجال المتخصص فيه، ولا يُنكر أحد بأن الطريق الذي تغلغل منه الأوروبيون في البلاط المغولي إنما يرجع إلى طريق الحرير، عُد إلى كتاب المؤلف الموسوم بـ : **دراسات في تاريخ الشرق الأقصى**، دار المعرفة الجامعية، السويس، 2003م، ص. 26.

72 Christopher I. Beckwith, op. cit., p.194.

73 جون مان : **كوبلاي خان ملك المغول الذي أعاد بناء الصين**، ص. 251.

74 جعفر كزار أحمد : **دراسة حول الإسلام والمسلمين في ظل الدولة المغولية في الصين**، في مجلة جامعة الإمام، العدد الثاني، محرّم، الرياض، 1428هـ/2009م، ص. 32.

75 فهمي هويدى: **الإسلام في الصين**، عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص. 43.

76 فوزي درويش : **الشرق الأقصى الصين واليابان**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القاهرة، 1997، ص. 20.

77 ماركو بولو : **رحلته**، تر. ط. 2، عبّد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ج. 1، ص. 33-35.

Henri Cons, *Précis d'histoire du Commerce*, Berber-levault et C^{ie},

Paris, 1896, T. I, p.129. Lars Boerner and Battista Severgnini,

Epidemic Trade, European Historical Economics Society, 2012, p.5.

78 فيصل السامر : **السفارات العربية إلى الصين في العصور الإسلامية**، في مجلة

جامعة المستنصرية، العدد 2، مج. 2، بغداد، 1971، ص. 27-28. وانظر أيضا:

Richard Foltz, *Religions of the Silk Road, Premodern Patterns of Globalisation*, Second Edition, palgrave macmillan, p.118-119.

79 محمد حسن محمد حمد : **الإسلام في الصين - دراسة حول الأقلية المسلمة**،

رسالة لنيل درجة الماجستير، إشراف د. فيروز عثمان صالح ، قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، السنة الجامعية (1427هـ/2006م).

ص. 93-94.

80 **صبح الأعشى**، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1332هـ/1914م، ج. 4،

ص. 312.

81 Christopher I. Beckwith, op. cit., p.190.

82 و. بارتولد : **تاريخ التّرك في آسيا الوسطى**، تر. أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ص. 221.

83 محمود السيد : **دول آسيا الوسطى والأطماع الغربية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2003م، ص. 196.

84 أمال سليمان عبد الحميد الزوي : **الإمبراطورية المغولية في عهد أوكتاي**،

أطروحة لاستكمال مُتطلّبات إجازة التخصص الدقيق (دكتوراه) في التاريخ الوسيط، إشراف د. علي حسين الشطشاط، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة

قاريونس ، السنة الجامعية (2010/2009م). ص. 100.

⁸⁵ Xinru Liu, op. cit., p.123.

⁸⁶ شستر أ. بين : المرجع السابق، ص.41.

⁸⁷ جون تومسون وآخرون : الحرير، تر. محمد هوارى، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، 2004، ص.12.

⁸⁸ ول واريرل ديورانت : قصة الحضارة (الصين الشرق الأقصى)، دار الجبل للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت.)، ص.244.

⁸⁹ للمزيد حول الموضوع، ارجع إلى: جمعة محمود كريم : أثر تجارة المحاصيل الزراعية على نشوء الطرق التجارية في غور الأردن (درب الفقول) منذ بداية العصر العباسي حتى نهاية العصر العثماني، منشورات كلية الآداب، مؤتة(د.ت.)

⁹⁰ للمزيد من المعلومات حول التنافس الكبير الذي وقع بين الديانات على طول طريق الحرير خاصة بين الإسلام والبوذية، ارجع إلى: يوهان أيلفركوغ : البوذية والإسلام على طريق الحرير، تر. وتغ. عبد الجبار ناجي، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، 2016.

⁹¹ سليمان حزين : المرجع السابق، ص.326-327.

⁹² Jonathan N. Lipman, *Familiar Strangers: A History of Muslims in North-west China* (Washington University of Washington Press, 1997), 24.

Raphael Israeli, "Muslims in China Between Myth and History," *The Muslim World* 91:1-2 (2001): 186. Published by Blackwell Publishing Ltd., 9600 Garsington Road, Oxford, 2012, Hartford Seminary.p.312.

⁹³ Roxan Prazniak, *Tabriz on the Silk Roads thirteenth Century Eurasian Cultural Connections*, Asian Review of world histories, university of Oregon, Oregon, 2013, p.170

⁹⁴ أورد الرحالة ماركو بولو إلى ما صرت إليه تبريز أثناء طريق ذهابه إلى البلاط المغولي قبل نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ومما قاله في شأن هذه المدينة الحيوية التي أفادت من طريق الحرير أيما إفادة، فقال: «...إن تورييس (تبريز) مدينة ضخمة وبالغة الفخامة...أرفعها شأنًا وأكثرها سكانًا، ويعتمد السكان في معاشهم بصفة رئيسية على التَّجَارَة والصناعات والأخيرة، تشمل صنع أنواع مختلفة من الحرير، بعضها مخلوط بخيوط الذهب وله أثمان عالية في الأسواق. فهي في موقع بالغ المواءمة للتَّجَارَة، بحيث يفد إليها التَّجَار من الهند وبلدات (بغداد) والموصل وكريميور(هرمز)، فضلًا عن أصقاع مختلفة من أوروبا، ليشتروا ويبيعوا فيها طائفة من السلع، وفي الإمكان الحصول في هذا المكان على الأحجار النفيسة واللآلئ بكميات وفيرة، ويحرز التَّجَار المشتغلون بالتَّجَارَة الأجنبيَّة ثروات ضخمة...» المصدَّر السَّابِق، ج.1، ص.64.

⁹⁵ حرص حكام المغول المتعاقبون الوصول إلى الشواطئ الشامية للمتوسط، حرصا منهم على بسط هيمنتهم العسكرية والاقتصادية على العالم القديم، ارجع إلى: عبد المعز عصري محمد بني عيسى : المرجع السابق، ص. 144.

⁹⁶ محمود السيد : المرجع السابق، ص.193-194.

⁹⁷ جورج لايين : **عصر المغول**، تر. تغريد الغضبان، مر. سامر أبو هوش، هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 1433 هـ/2012م، ص.221.

⁹⁸ سونيا ي. هاد: المرجع السابق، ص.27-28.

⁹⁹ Christopher I. Beckwith, op. cit., p.194.

¹⁰⁰ جورج لايين : **المرجع السابق**، ، ص.210-211.

¹⁰¹ نفس المرجع، ص.242.

¹⁰² سونيا ي. هاد : المرجع السابق، ص.27-28.

¹⁰³ استفادت الكثير من المدن الإسلامية من ازدهار وحيوية طريق الحرير، ومن ذلك مدينة حلب، للمزيد ارجع إلى: كامل الغزي : **نهر الذهب في تاريخ حلب، مطبعة الماروسة، حلب، (د. ت.)، ص.145؛** صالح موسى درادكه : **دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام، مطبعة السفير، عمّان، 2011، ص.233؛** نقولا زيادة : **مدن عربية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 2002، ص.145-150.**

¹⁰⁴ مثال ذلك حلب التي تأثر سلبا باضمحلال طريق الحرير غداة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح، ارجع إلى: كامل الغزي : **نهر الذهب في تاريخ حلب، مطبعة الماروسة، حلب، (د. ت.)، ص.145؛** صالح موسى درادكه : **دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام، مطبعة السفير، عمّان، 2011، ص.233.**

¹⁰⁵ هادي العلوي : **المستطرف الصيني من تراث الصين، دار المدى للثقافة والنشر، بيروت، 2000م، ص.298.**

¹⁰⁶ إسماعيل العربي: **في مقدمة كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1970م، ص.51-52.**

¹⁰⁷ شمس الدين الكيلاني : **صورة شعوب الشرق الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة (الصين والهند وجيرانهما)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2008، ص.17.**

¹⁰⁸ أيرين فرانك وديفيد براونستون : المرجع السابق، 311.

¹⁰⁹ Vladimir Liscak, *Itlian City-states and Catholic Missions in Mongolian World of the 13th and 14th Centuries*, journal for General Anthropology and Related Disciplines, pod Vadarenskou, 2012, p.6 . kenneth M . Setton, *The Papacy and the Levant (1204_1571)*, revu des E. B., Anné 1980, vol. 38, numerous 1, pp.314_315.

¹¹⁰ محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص.81.

111 تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، تر. الهادي أبو لقامة ومحمد عزيز، ط.2، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1988م، ص.53.

112 إدوار بروي وآخرون : المرجع السابق، ج.3، ص.379.

113 كان للبنادقة دور كبير في تنشيط الروابط التجارية بين المغول وأوروبا الغربية، للمزيد من الشرح، ارجع إلى:

Christine Gadrat, *Le Rôle de Venise dans la Diffusion du livre de Marco Polo (XIV –Début XVI e e Siècle)*, Médiévales, No. 58, Humanisme et découvertes géographiques, Universitaires de Vincennes , 2010, pp. 63- 78.

114 هناك دراسة متخصصة في هذا الموضوع، لمن أراد المزيد من الشرح والإيضاح: حسام صلاحى : العلاقات التجارية بين مغول فارس وجمهورية البندقية وأثرها على القوى الإسلامية من منتصف القرن 13/هـ إلى منتصف القرن 14/هـ م، (، مذكرّة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف د. رشيد تومي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية (1437-1436 هـ/2015-2016 م).

115 شارل ديل: البندقية، جمهورية أرسنقراطية، تر. أحمد عزت عبد الكريم و توفيق إسكندر، دار المعارف، القاهرة، (د. ت.)، ص.62. وانظر أيضا: Xinru Liu, op. cit., p.123.

116 سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربيّة، القاهرة، 1996، ص.314. وللمزيد حول دور الكنيسة في فرض مقاطعة التجارة الإسلامية، ارجع إلى: إيلاف عاصم مصطفى: دور البابوية والقرصنة في شل حركة التجارة الشرقية في البحر المتوسط 1291-1498، في مجلة كئيّة التربية الأساسية، العدد، 33، جامعة المستنصرية، السنة، 2012، ص.274-275؛ محمد عبد الغني الأشقر: تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د. ت.)، ص.143.

117 أيرين فرانك وديفيد براونستون : المرجع السابق، ص.299.

118 جون تومسون وآخرون : المرجع السابق، ص.13.